الفصل العاشر

العروض الإسرائيلية والرفض المصرى

- نحن نؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك جميعا فى صنعه. ودورنا العربى هو قدرنا ولا رجعة عنه
- مصر ترفض عرضا إسرائيليا بإعادة سيناء بلا شروط مقابل دعوة أشكول لزيارة القاهرة
- معارضة مصرية تواجه عبد الناصر..
- لماذا لا نترك العرب والفلسطينيين لشأنهم ونحل مشكلة سيناء؟
- أشكول: نهر مصر المشار إليه فى العهد القديم هو نهر العريش وليس نهر النيل
- لماذا أحال عبد الناصر رئيس الأركان المصرى إلى التقاعد؟

obeikandl.com

فى نفس الاجتماع المغلق الذى ترأسه عبد الناصر يوم ٦ نوفمبر ١٩٦٨ لأعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الإشتراكى، والذى كانت تعتبر نصوص محضره سرية للغاية، ثارت مناقشة هامة حينما علق العضو أحمد العماوى على معنى التزام مصر الأخلاقى برفض الحل المنفرد والارتباط بالتسوية الشاملة القائمة على انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضى المحتلة وبحقوق الفلسطينيين، قائلا: «الدول العربية تحملنا عبء قضية فلسطين بالكامل، وإنى أرى أنه يجب أن نتحمل نصيبنا فقط من هذه القضية وليست كلها، ويجب على الدول العربية أن تتحمل نصيبها أيضا، لأن ما نشعر به أن الدول العربية كلها تلقى العبء كله على كاهل الشعب المصرى، ونحن بدورنا نتحمل كافة التضحيات».

ورد جمال عبد الناصر بقوله: «فى الحقيقة أنا أعتقد أن هذا الدور هو قدرنا لعدة أسباب، لأن مصر هى أكبر دولة عربية».. وفى حواره مع الفريق محمد فوزى وزير الحربية قال له: إنه على رغم ا -هود القائمة لعمل جبهة شرقية، من سوريا والعراق والأردن، إلا أن الخطط العسكرية المصرية لابد أن تقوم على أساس أن مصر ستحارب وحدها، وأنه قام بإقناع السوفيت مؤخرا بهذا المنطق بصعوبة.

وقال جمال عبد الناصر: «إن الشعوب العربية هى فى طبيعتها أيضا عندها موقف أخلاقى يتساوى مع الموقف الاخلاقى بتاعنا».. والناحية الأخرى هى: «هل نقبل أن أحنا نتفاهم على الجلاء عن سيناء، ونسيب القدس والضفة الغربية، وننهى حالة الحرب؟.. هل حتى هذا الشعب (المصرى) يقبل أن تكون الضفة الغربية محتلة، بينما تنسحب إسرائيل من سيناء وتنهى مصر حالة الحرب معها قائلة إنها تعتقد أنها تنفذ قرار مجلس الأمن؟».

إن شهر نوفمبر ١٩٦٨ شهد على هذا النحو خلاصة السياسة الأمريكية فى ظل رئاسة ليندون جونسون، ورد مصر عليه، فالسياسة الأمريكية قامت أولا على جنى ثمار حرب يونيو سياسيا من خلال «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» وحينما لم تأت بوادر النجاح بالسرعة المطلوبة أصبح الهدف هو إحراج مصر سياسيا بتقديم عرض إليها لا تستطيع أن ترفضه.. على حد تعبير والت روستو فى مذكرته السرية للرئيس جونسون فى اليوم الثالث لحرب يونيو، والآن، قبل أن تنتهى رئاسة جونسون بشهرين ونصف فإنه يعرض على

مصر استرداد سيناء بالكامل، وحق العودة للفلسطينيين، مقابل إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل والانفصال عن الأردن وسوريا.

وطوال هذا كله كان الضغط العسكرى على مصر مستمرا من خلال الاحتلال الإسرائيلى من ناحية، وعرقلة بناء القوات المسلحة المصرية بأى ثمن، وإمداد إسرائيل بالمزيد من الأسلحة التى تضمن لها السيادة العسكرية فى المنطقة كلها من ناحية أخرى.

وبعد أن عرفت إدارة جونسون بإصرار جمال عبد الناصر على التسوية الشاملة، وبرفضه «الجزرة» التى تعرضها عليه، فإن تكرار استخدام «العصا» معه ربما يجعله يلين، أو يجعل الشعب المصرى يرتعد، ومن هنا تم فى أواخر ديسمبر «١٩٦٨» التوقيع على صفقة بخمسين طائرة فانتوم أمريكية أف- ٤ إلى إسرائيل، على أن تتسلم إسرائيل ١٦ طائرة منها فى أواخر ١٩٦٩، والباقى فى سنة ١٩٧٠، ولتخفيف الآثار المتوقعة فى العالم العربى ضد الولايات المتحدة، اقترنت الصفقة ببضع دبابات تنوى إدارة جونسون بيعها إلى الأردن، بينما قرر ليفى اشكول رئيس وزراء إسرائيل أن الرئيس جونسون أعطاه تقريبا حق الفيتو «الاعتراض» لو أراد.. فلا تحصل الأردن حتى على تلك الدبابات الرمزية...

وكانت تلك الصفحة الأخيرة التى أنهى بها ليندون جونسون رئاسته للولايات المتحدة، لقد نجحت السياسة الأمريكية فى حرب يونيو، ونجحت فى ضمان استمرار الأمر الواقع الجديد، لكنها لم تنجح مطلقا فى أى من الأهداف الأخرى التى تستلزم عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

نيكسون وروجرز.. وكيسنجر

مع العشرين من شهر يناير ١٩٦٩ أصبح هناك رئيس جديد فى البيت الأبيض الامريكى، حيث أصبح ريتشارد نيكسون رئيسا لأربع سنوات تالية، وكان من بين الوجوه التى جاء بها إلى إدارته.. وليم روجرز كوزير للخارجية.. وهنرى كيسنجر كمستشار له لشئون الأمن القومى.

وكان هنرى كيسنجر، كيهودى صهيونى أمريكى متعصب تماما لإسرائيل مثل سلفه فى نفس المنصب- والت روستو- يتحرق لهفة ليصبح مساهما فى صياغة وتشكيل السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط، ولكن الرئيس الجديد نيكسون جعل هذا الجزء بالذات مدينا فى انتخابه لأصوات اليهود الأمريكيين، أو لأموالهم، كغيره من الرؤساء

السابقين. بالإضافة إلى أنه كان عميق الخبرة بالشؤون الدولية. ولم يكن يثق كثيرا فى قدرات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. كل تلك العوامل تجعله على طرفى نقيض من سلفة ليندون جونسون.

وأذكر وقتها أننى بعثت من نيويورك بمقال نشرته لى «أخبار اليوم» انتهيت فيه إلى أن السياسة الأمريكية الجديدة فى الشرق الأوسط لابد أن تكون أفضل فى ظل رئاسة نيكسون. لسبب بسيط. وهو أنها فى عهد جونسون وصلت إلى أسوأ ما يمكن أن تصل إليه.

ومن البداية بادر نيكسون بإيفاد مبعوث شخصى له إلى المنطقة. وهو وليم سكرانتوم. ليجتمع مع الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة. مبشرا بسياسة أمريكية جديدة تقوم على التوازن Even handed policy والخطوة التالية حينما أعلن فى فبراير «١٩٦٩» عن «سياسة جديدة للولايات المتحدة للامساك بزمام المبادرة. إننا لن نجلس لننتظر حدوث شىء آخر».

أما الخطوة الثالثة التى اتخذها نيكسون. فهى مبادرته فى ٦ فبراير ١٩٦٩ بالموافقة على اقتراح سابق للرئيس الفرنسى شارل ديغول بضرورة عدم انفراد الولايات المتحدة بالتصرف فى أزمة الشرق الأوسط (كما كانت تصر سياسات جونسون من قبل) ولابد أن ياتى الحل نتيجة مشاورات تعقدها الدول الأربع الكبرى (الولايات المتحدة- الاتحاد السوفياتى- فرنسا- بريطانيا). ووافق نيكسون على أن تبدأ تلك المشاورات من خلال مندوبى الدول الأربع فى مجلس الأمن. مؤكدا فى نفس الوقت تأييده الكامل لمهمة جونار يارنغ ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة.

أشكول يعرض القدوم إلى القاهرة وإعادة سيناء

بعدها بأحد عشر يوما فقط أذاع ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل تصريحات مثيرة. فرد على سؤال يقول: «الرئيس ناصر يتهم بأن هدفكم هو إسرائيل الكبرى. من النيل إلى الفرات. ماذا نستطيع قوله لإقناعه بأن الأمر ليس كذلك؟».

ورد أشكول: من الصعب أن أقول مرارا وتكرارا إننا مستعدون لمناقشة مشاكلنا مع ناصر. اننى مستعد للسفر إلى القاهرة غدا. إننى لا أريد أن أتحدث كمنتصر. إننى أريد أن أزيل من ذهنة تلك الفكرة السخيفة المضحكة عن إسرائيل الكبرى. إنه لا يستطيع أن يقيم سياسته على جملة تفوه بها أفراد لا يمثلون شيئا سوى أنفسهم. فحتى الإنجيل لا يستخدم تلك

الجملة. إن «نهر مصر» المشـــار إليه فى «العهد القديم» ليس هو النيل ولكنه نهر العريش. وهو مجرى طينى طوله أميال قليلة داخل سيناء. إننى أستطيع أن أضمن كلمتى لناصر بأن إسرائيل الكبرى لم تكن مطلقا هى سياستنا. إننى مستعد لمقابلته فى أى مكان وأى وقت. ولن أنازع فى الإجراءات. ولا فى جدول الأعمال. ولا فى شكل المائدة.

ثم سأل اشكول: أى تنازلات تصرون عليها فى مقابل الانسحاب من الأراضى العربية؟ هل تصرون على نزع سلاح شبه جزيرة سيناء ووجود عسكرى دائم فى شرم الشيخ؟.

رد أشكول: إننا لا نصر على شىء. جربونا وسوف تفاجأون بدرجة الأخذ والعطاء التى نحن مســتعدون لها. ففى شرم الشيخ يجب أن نكون فى موقف «يسمح لنا» بحماية المرور إلى خليج ثيران- مينائنا الخلفى. إننا لا نستطيع الاعتماد على وعود من أطراف خارجية. ونحن لا نستطيع كبلد أن نعيش بغير معاهدة سلام. أما بالنسبة لمرتفعات الجولان. فإننا ببساطه لن نعيدها. نفس الشئ بالنسبة للقدس. هنا لا يوجد مرونة على الإطلاق.

و(حينما ســتجئ جولد مائير فيما بعد رئيسة للوزراء بعد وفاة اشكول. فإنها تكرر نفس النغمة. قائلة إنها مستعدة للذهاب إلى القاهرة فورا لو أن الرئيس جمال عبد الناصر دعاها إلى ذلك.. الخ).

سياسة العصا والجزرة

لم يكن فى هذا العرض الاسرائيلى المحدد سوى إعلانه. فإسرائيل تريد بأى ثمن إخراج مصر من الصراع العربى الاسرائيلى لأن أطماعها العاجلة هى فى الاراضى العربية الأخرى. إســرائيل مســتعدة للانسحاب الكامل من ســيناء. وإعطاء قطاع غزة لإدارة الأمم المتحدة. وهى لا تطلب بالمرة نزع سلاحها. والمقابل الوحيد الذى تريده هو إعلان مصر بإنهاء حالة الحرب. بمفاوضات مباشرة لو تيسر.

كان الموقــف الامريكــى من البداية يســير فى نفــس الاتجاه. فمصــر. ومصر وحدها. تستطيع استرداد سيناء. وقطاع غزة. وبغير قتال. بل إن الولايات المتحدة لا ترى أن على مصر أن تعترف بإســرائيل. أو أن تجرى معها مفاوضات مباشــرة- طبقا للرسالة الرسمية لينـدون جونسون إلى الرئيس اليوغوسلافى تيتو فى أغسطس ١٩٦٧.

ولم يكن ســبب هذا الموقف كرم مفاجئ نحو مصر. أو تعديل فى الأهداف الأصلية من عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» فحرب يونيو كانت تستهدف أن تبدأ إعادة رسم

الخريطة من مصر، أما ومصر تقاوم ومصممة على الحل العسكرى وتمضى فيه متحملة كل التضحيات، فلا بأس أن تبدأ العملية من دولة عربية أخرى.. لكى تنتهى بمصر بدلا من أن تبدأ بها، ومفتاح هذا كله هو أن تقبل مصر حلا منفصلا لمشكلة أراضيها المحتلة، وتفك ارتباطها بالقضية المحورية، وبالعالم العربى.

وطوال سنة ١٩٦٩ سيتبلور هذا فى استخدام سياستى «العصا والجزرة» مع مصر قبل أن تستقر المواقف عند نقطة جديدة مختلفة.

استئناف حرب الاستنزاف

لقد استأنفت مصر فى ٨ مارس ١٩٦٩ حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء فى مرحلة جديدة تعكس التطور الجديد فى الإمكانيات العسكرية والقيادات العسكرية المصرية، لقد أصبح الجيش فى معظمه من حملة المؤهلات العليا والمتوسطة، ولم تكن نوعيات الأسلحة الجديدة تحتاج إلى مستوياتهم التعليمية فقط، ولكن كل ما يرتبط بتلك الأسلحة، وفى بند واحد فقط، وهو بند السائقين اللازمين للدبابات والسيارات والعربات المدرعة، كان الجيش الجديد يحتاج إلى أربعين ألف سائق مثلا، وهؤلاء يحتاجون إلى المدربين والفنيين وكل الخدمات الأساسية الأخرى، وأصبح الجيش يمد مقاتليه بنشرة دورية عن أبعاد الموقف السياسى، ويعد لهم برامج مكثفة لتعلم اللغة العبرية، وينقل إليهم الدروس المستفاده من عمليات القتال الجارية أولا بأول وأصبح الضباط يسبقون جنودهم فى البذل والتضحية.

ففى يوم ٩ مارس ١٩٦٩ ورد إلى القاهرة خبر صاعق، ففى اليوم السابق كانت مصر قد بدأت مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء، لخمس ساعات متواصلة استمرت المدفعية المصرية من غرب قناة السويس تقصف التحصينات والتشكيلات العسكرية فى شرق القناة، تطور قالت عنه وكالات الأنباء إنه يعكس قفزة جديدة فى قدرات مصر العسكرية، والآن فى اليوم التالى، يجئ الرد الاسرائيلى المضاد بالقصف الشامل لمواقع الخط الأمامى المصرى، فى أحد تلك المواقع على حافة قناة السويس مباشرة جاءت الإصابات محددة: اثنان من الجرحى وشهيد واحد، أما الشهيد فهو الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، تكهرب الناس جميعا، تكهربوا مرتين، مرة لأن إرادة القتال تزداد قوة وصلابة فى لهيب المواجهة.. نضرب..

فننضـرب.. فنضـرب من جديـد، ومرة لأن أكـبر رأس فى العسـكرية المحترفة المصرية الجديدة استشـهد بين جنوده، وفى المواقع الأماميـة من الجبهة حيث كان «فى الخندق الأول فـى النسـق الأول» لقوات الجيش الثانى فى مواقعهـا الغربية من الإسماعيلية ضمن مروره اليومى على القوات المصرية بامتداد خط الجبهة كله.

لم يكن عبد المنعم رياض منذ بدايته ضابطا عاديا، كان عاشـقا للعسكرية المصرية مؤمنا بأنـه لا حيـاة لمصر بغير جيش قوى يحميها، والجيش القوى الذى يسـتعد لحرب قادمة وليس لحرب سابقة، يعنى التبحر فى العلم العسكرى، فى المعرفة، فى المزيد من المعرفة، يعنـى أن يطلب قائد من جنوده بقدر ما يعطيه لهم، يعنى أن يصبح القائد قدوة بسـلوكه وليـس بكلماته، يعنى أن نتعلم دائما، حتى من العدو، يعنى ألا تقول لجنودك، تقدموا.. ولكن تقول لهم اتبعونى، يعنى أن يتفاعل القائد مع سلاحه وجنوده ومرؤوسيه، يعنى أن يؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك فى صنعه.

وعبـد المنعم ريـاض كان أول دفعته فى التخـرج وكان تخصصه الدفـاع الجوى وكان يـزداد تواضعا كلما ارتفعت رتبته، وفى إحـدى المرات مثلا عاد العقيد محمد على فهمى (أصبح مشيرا فيما بعد ورئيسا لأركان الحرب) من بعثة تدريبية فاتصل به اللواء- وقتها- عبد المنعم رياض يسـأله: عندك وقت أشـوفك لأعرف منك الجديد الذى خرجت به؟ رد عليه محمد على فهمى بود ومحبة: دقائق سيادة اللواء، وأكون فى مكتبك، لكن عبد المنعم رياض قاطعه قائلا: أنا الذى سـأجئ إليك يا أخى فى مكتبك لأتعلم، فالمعرفة ليس فيها عقيد ولواء، فيها معلم ومتعلم وأنا يا محمد أريد أن أتعلم.

تلـك- وغيرهـا كثير- حكايـات عرفناها عن عبد المنعم رياض فيمـا بعد، أما فى تلك اللحظة- لحظة الخبر الصاعق- فكل ما اكتشفناه، وبأثر رجعى، هو أن عبد المنعم رياض بصفته رئيس أركان حرب القوات المسـلحة المصرية الجديدة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ كان يقوم بالعشـرات من الزيارات المفاجئة للضباط والجنود فى جبهة القنال، زيارات سـرية لا يعلن عنها فى حينها ولا بعدها، الآن، فى صدفة درامية، نكتشف أن الفريق عبد المنعم رياض استشـهد وضباطه فى الخط الأمامى على حافة قناة السويس مباشرة بينما هو يتابع على الطبيعة النتائج الفعلية ليوم جديد من حرب الاستنزاف.

فى المكاتب والبيوت، فى الأتوبيسات والشوارع، فى القرى والمدن اهتز المصريون جميعا بنوعين من المشـاعر متلازمين فى خط واحد، هناك أولا الشـعور بالذنب، لقد قسونا على

العسكريين كثيرا وطويلا بعد هزيمة يونيو، لكن عبد المنعم رياض باستشهاده هذا أعاد الاعتبار إلى العسكريين جميعا، هذا النوع الجديد من العسكريين الذين يقع على أكتافهم إعادة الاعتبار للعسكرية المصرية وإعادة بناء القوات المسلحة.

أما الشعور الآخر فهو، الغضب، أقصى درجات الغضب، فى هذه المرة أصبح الغضب قوة إيجابية تماما، كنا نصر منذ يونيو ١٩٦٧ على أن الانتصار الاسرائيلى مجرد صفحة فى كتاب لكنه ليس آخر كتاب، وإسرائيل تريد من انتصارها أن يصبح النهاية، نهاية مصر أو حتى بداية النهاية، الآن يصر المصريون على أن استشهاد عبد المنعم رياض هو نهاية البداية، نهاية النظر إلى الخلف وبداية التطلع إلى الأمام، التطلع إلى تحرير الأرض، كل الأرض العربية.

ربما تكون هذه قفزة سريع إلى الأمام نعود بعدها، ولأن الحدث لم يكن مصريا وإنما عربيا، فعندما التقيت بالعماد أول (الفريق) مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى فى مكتبه وجدت صورة عبد المنعم رياض تفاجئنى فى برواز خاص يضعه مصطفى طلاس على مكتبه، وعندما سألته قال: هناك سببان، احدهما موضوعى والأخر شخصى، أما الموضوعى فهو أن استشهاد عبد المنعم رياض لم يكن واقعة مصرية، هو واقعة عربية، ففى حالة البلبلة والانهزامية واليأس التى حاولت إسرائيل فرضها علينا بعد ١٩٦٧ كان عبد المنعم رياض شعاعا مضيئا فى الظلام، هذا عسكرى محترف، ومتبحر فى العلم العسكرى، يتابع القتال من الخندق الأمامى وهو يعرف مسبقا أنه فى بؤرة الخطر، أقصى درجات الخطر.

مثل هذا السلوك لا يفعله إلا شخص مؤمن بجنوده وضباطه، مؤمن بجيشه، ببلده، بعروبته وبأن إرادة النصر يجب أن تبدأ من الرأس، ولو أخذتك الآن فجأة إلى مكتب رئيس أركان حرب الجيش السورى، أو حتى فى أية كلية عسكرية فى بلد عربى يحترم نفسه، فسوف تجد صورة عبد المنعم رياض باعتباره العملة الذهبية التى يقاس عليها الأداء العسكرى المحترف.

أما السبب الشخصى- مازلنا مع كلمات مصطفى طلاس- فهو أننى شاركت فى جنازة عبد المنعم رياض مبعوثا من سوريا، لقد وصلت إلى القاهرة متوقعا أن تكون جنازة عسكرية تقليدية أعود بعدها فى المساء إلى دمشق.

فى القاهرة وجدت أن الرئيس جمال عبد الناصر قرر أن تصبح جنازة عبد المنعم رياض عسكرية وشعبية معا، أنه هو نفسه فى المقدمة، ومع أننى عشت فى القاهرة من قبل إلا إننى فى ذلك اليوم فوجئت بأن شوارع القاهرة وميادينها اتسعت فجأة لكى تضم مئات الآلاف من المصريين خرجوا بعفوية يشاركون فى الجنازة.

فى إحدى النقاط ذاب عبد الناصر من بيننا وسط الناس وهم جميعا يتدفقون إليه، كل واحد حريص على الاقتراب منه ليقول له: البقية فى حياتك يا ريس، ولا يهمك يا ريس، الثأر يا ريس، معك ثلاثين مليون عبد المنعم رياض ياريس.. الخ.

توقف مصطفى طلاس لحظة قبل أن يضيف: تطلعت حولى فوجدت أن طاقم الحراسة الخاص بالرئيس عبد الناصر ذاب هو الآخر وسط الناس، تطلعت من جديد فوجدت رؤساء أركان الحرب القادمين من الدول العربية للمشاركة تحولوا هم أيضا إلى مواطنين يغمرهم الانفعال.. مددت كلتا يدى يمينا وشمالا لأقول لهم، فلتتشابك أيدينا معا لتصبح طاقم حراسة للرئيس، نحيط بالرئيس، نحمى الرئيس.

فى المساء ذهبنا إلى الرئيس جمال عبد الناصر نستأذنه فى العودة إلى بلادنا واقتربت من الرئيس، لأقول له: سيادة الرئيس.. هذا التفاعل الذى شاهدناه اليوم من الشعب المصرى هو أكبر عزاء لك فى استشهاد عبد المنعم رياض، قاطعنى عبد الناصر قائلا: لا يا طلاس، أنا ذهبت إلى الجنازة لمشاركة الناس وليس لتقبل العزاء فى رياض، العزاء الوحيد عندى، وعند عبد المنعم رياض، وعند كل العسكريين المصريين، هو تحرير الأرض، كل الأرض، لا أتكلم هنا عن سيناء فأمرها محسوم، أتكلم عن القدس، قبل الجولان، هى القدس يا طلاس. قالها عبد الناصر بوجه من الجرانيت وعينين من النيران.. وهكذا تحولت جنازة عبد المنعم رياض فى القاهرة، التى اشترك فيها الرئيس جمال عبد الناصر وممثلين عن الدول العربى، إلى مظاهرة وطنية عارمة وغاضبة اجتاحت العالم العربى.. تصر على الثأر رغم كل التضحيات.

نعود.. فطوال سنة ١٩٦٩ أصبحت هناك مشاورات دولية بين جميع الأطراف، فالولايات المتحدة من جانبها تدير حوارا ثنائيا مباشرة مع الاتحاد السوفيتى، وحوارا آخر مع الاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا، وحوارا منقطعا مع مصر، إن إسرائيل تريد تحييد مصر، ومصر تريد تحييد الولايات المتحدة، والولايات المتحدة تريد تحييد الاتحاد السوفياتى، ولكن وسط تلك الشبكات المتقطعة من الحوارات، كان الحوار الأهم الذى يفرض نفسه على كل الحوارات الأخرى هو حوار المدافع فى جبهة قناة السويس.

مذكرة رابين

إن إسحاق رابين سفير إسرائيل بواشنطن يكتب إلى حكومته فى إسرائيل أن حرب الاستنزاف التى يشنها المصريون عبر قناة السويس «لها تأثير مباشر فى المباحثات السوفيتية الأمريكية».

وألح السفير على حكومته بضرورة العمل على «سحق» رغبة مصر فى المضى فى حرب الاستنزاف، فطالما استمرت تلك الحرب، فإن الولايات المتحدة ترى أن مركزها فى الشرق الأوسط يتدهور بشكل ثابت ومنتظم. وكلما زاد التآكل أصبح الأمريكيون مبالين إلى- ومقتنعين بـ- وقف خسائرهم فى المنطقة عن طريق التوصل إلى تفاهم مع الاتحاد السوفيتى، فطالما أن هذا الاستقطاب مستمر، حيث الاتحاد السوفيتى يتبنى مطالب مصر والعرب، والولايات المتحدة تتبنى مطالب إسرائيل، والمصريون مستمرون فى القتال، فإن النتيجة هى تصاعد العداء ضد المصالح الأمريكية فى العالم العربى، وفى مايو ١٩٦٩ وقع انقلاب عسكرى فى السودان أعلن من الدقيقة الأولى تضامنه الكامل مع مصر، وسرعان ما سيتبعه انقلاب مماثل فى ليبيا، والاتحاد السوفيتى يحقق مكاسب سياسية وإعلامية بامتداد المنطقة بعد أن كان أحد أهداف حرب يونيو هو إخراجه بالكامل.. الخ.

وهكذا، ففى أوائل يوليو ١٩٦٩ قررت الولايات المتحدة إيفاد جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية إلى موسكو لإجراء مشاورات جديدة مع السوفيات.

وكانت علاقات السفير الاسرائيلى إسحاق رابين مع كبار المسئولين فى واشنطن تجرى على مستويين، فهناك مستوى رسمى تسجل فيه المواقف فى محاضر مكتوبة، ولكن هناك مستوى أخر غير رسمى أكثر صراحة مما تسمح به المحاضر المكتوبة المسجلة.

سيسكو يتحدث بصراحة

وخلال أحد تلك الحوارات غير الرسمية، وأثناء تناولهما الغداء معا قبل سفر سيسكو إلى موسكو، قال وكيل وزارة الخارجية الأمريكى للسفير الاسرائيلى رابين:- إن مصالحنا فى الشرق الأوسط لا تتركز على إسرائيل وحدها، إن التزامنا المعنوى والعملى نحو إسرائيل لا يمتد بأى شكل إلى شىء تريد إسرائيل أن تفعله، ودعنى أخبرك بصراحة: إذا أصبحت الصداقة مع إسرائيل هى كل ما يتبقى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فإن هذا سيصبح نكسة وكارثة للسياسة الأمريكية، وعلينا أن نبحث عن حل سياسى لأنه الشىء الوحيد الذى يؤدى إلى تأمين مصالحنا فى المنطقة.

وحاول السفير رابين أن يشرح للمسئول الأمريكى أنه من وجهة النظر الإسرائيلية لا يوجد تناقض بين المصالح بعضها وبعض «- يقصد صدور بيانات عربية بإنهاء حالة الحرب يتم إيداعها فى الأمم المتحدة- ولكن إسرائيل تريد التوصل إلى اتفاق ملزم يتحمل فيه الأطراف

التزامات متبادلة، ولكى يدوم السلام لا بد أن يكون له مضمون عملى قائم على الحدود المفتوحة وحرية تنقل الأشخاص والسلع وعلاقات دبلوماسية بين إسرائيل والدول العربية المعنية».

وقاطعه جوزف سيسكو قائلا: «إن الولايات المتحدة لن تود ما هو أفضل من ذلك، ولكن، طالما أن العرب يرفضون مثل هذه الإمكانية برمتها فيظل السؤال هو: ما هو الحد الأدنى الضرورى لوضع نهاية للصراع؟ إننا لا نستطيع إرغام المصريين على أن يحبوكم، وبقدر ما يعنينا الأمر فإن أى حل أقل من هذا النوع من السلام الذى تصفه، سيكون كافيا، فبالنظر إلى الظروف القائمة، يجب علينا أن نكون واقعيين».

ولم تكن هذه «الظروف القائمة» التى يقصدها المسئول الأمريكى سوى **حرب الاستنزاف** المصرية.

إنزال إسرائيلى فى «الزعفرانة»

وهكذا بدأ السفير الإسرائيلى فى واشنطن يمطر حكومته فى **إسرائيل بضرورة توجيه** ضربات ساخنة إلى المصريين ترغمهم على وقف حرب الاستنزاف، **وخصوصا من خلال** عمليات عسكرية خاصة يمكن استخدامها دعائيا على نطاق واسع لإحباط الإصرار المصرى على المضى فى الحرب.

وفى هذا السياق مثلا فإن إسرائيل قامت فى فجر التاسع من سبتمبر ١٩٦٩ «بإنزال مجموعة سرية مختلطة بتسع دبابات برمائية على شاطئ خليج السويس الغربى قرب نقطة حدود الزعفرانة ١٠٠ كيلو متر من جنوب السويس، وقضى على أفراد نقطة الحدود، خمسة أفراد، وقطع طريق السويس/ الغردقة المار بحذاء الشاطئ وخط التليفون الهوائى، ولعدم وجود قوات فى هذه المنطقة أخذ العدو يصور فيلما لقواته الهابطة على الشاطئ، واستمر هكذا ٦ ساعات، وعادت قواته من حيث أتت». وخلال ساعات ستروج إسرائيل لتلك العملية المسرحية فى العالم كله بعد أن أطلقت عليها اسم «عملية غزو مصر».

وفى ذلك اليوم كان جمال عبد الناصر فى زيارة سرية للجبهة حتى يحضر مشروعا تدريبيا للفرقة ٢١ المدرعة المشكلة حديثا، وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا جاء اللواء عبد الغنى الجمسى مدير الاستطلاع إلى موقع التدريب فى الكيلو ٥٢ بطريق القاهرة السويس الصحراوى، وابلغ الرئيس جمال عبد الناصر بنزول مجموعة سرية برمائية إسرائيلية فى الزعفرانة، ولم يكن لديه معلومات أخرى، وبعد التداول مع الفريق محمد فوزى وزير

الحربية واللواء احمد إسماعيل رئيس هيئة أركان الحرب أمر الرئيس بتكليف اللواء أحمد إسماعيل ومستشارة السوفياتى بالتوجه فورا إلى الزعفرانة رأسا لاستطلاع الموقف وحسمه، مع إخطاره بما يجرى على وجه السرعة.

إحالة رئيس الأركان للتقاعد

ولم يستطع عبد الناصر مواصلة حضور المشروع التدريبى فعاد إلى القاهرة فى الثانية والنصف ظهرا، وفى السادسة مساء علم جمال عبد الناصر بأن اللواء أحمد إسماعيل رئيس الأركان كان يتابع ما يحدث فى الزعفرانة من مكتبه بالقاهرة، بينما توجه المستشار السوفياتى مباشرة من الكيلو ٥٢ إلى الزعفرانة لكى يعود فى السادسة مساء ويقدم تقريرا إلى وزير الحربية، وشعر عبد الناصر بغضب شديد فقال لوزير الحربية: هو المستشار الروسى ينفذ أوامرى ورئيس الأركان يفضل البقاء فى المكتب؟.. إن رئيس الأركان لا يصلح للاستمرار فى تحمل المسؤولية.. شوف لك واحد آخر.

وفى تلك الليلة صدر قرار بإحالة أحمد إسماعيل إلى المعاش، بينما كان جمال عبد الناصر يغلى من الغضب وهو يتابع استغلال إسرائيل الدعائى حول العالم لتلك العملية، وفجأة شعر «وهو جالس خلف مكتبه وكأن خنجرا حادا يغوص فى صدره نافذا من ظهره متوسطا مكانا بين الرئتين، وعندما استدعى الأطباء قرر الجميع أن عبد الناصر يعانى من نوبة قلبية حادة وأن عليه أن يستريح تماما وأن يبتعد عن العمل، بل ويبقى فى فراشة سبعة أسابيع كاملة».

وفى القاهرة تم تكتم إصابة عبد الناصر بتلك النوبة القلبية الأولى، ونشر أنه مصاب بالإنفلوانزا، ولم يسمح له الأطباء بالعمل إلا فى أول نوفمبر بعد منعه نهائيا من التدخين.

أما فى إسرائيل فقد كانت الاستجابة مستمرة لنصائح رابين المتلاحقة من واشنطن، خصوصا وأن إسرائيل تسلمت أول دفعة من طائرات الفانتوم قبل أيام.

الحق والقوة

فى الجانب العسكرى كان هناك التفكير منصبا من «رجال اليوم السابع» على خط بارليف: الذى أقامته إسرائيل على الجانب الأخر لقناة السويس، ولكى يتم العبور بالقوات إلى سيناء كان لابد من البحث عن حلول.. إنه يشبه عمارة من سبع طوابق.. مطلوب أن

يسوى بالأرض.. كيف يحدث ذلك، وبأى نوع من المتفجرات؟ وخلال أى مهلة زمنية؟

إن هذا الساتر الرملى ليس عمارة ولا يضم أى فراغات ولا حتى أعمدة أو سقف بحيث لو جرى نسف أسفلها ينهار عاليها.. أبدا.. هو مكبوس كبسا بالرمال والأتربة.. وهناك طائرات فوق الرؤوس لمنع الاقتراب منه. وقذائف مدفعية من بعيد مسلطة على كل من يقترب منه.. والفشل فى إنجاز الهدف هذا لا يعنى فقط موت كل من يفكر فى العبور ولكنه يعنى أيضا إصابة القوات المعدة للعبور بالشلل.. ويعنى ببساطة استمرار إسرائيل فى احتلال الأرض المصرية.

تلك كانت واحدة من مئات المعضلات التى يواجهها المخططون المصريون من القوات المصرية بعد الهزيمة المروعة فى ١٩٦٧، لقد أصبحت قناة السويس مانعا مائيا يفصل بين الاحتلال الإسرائيلى وبين القوات المصرية الجديدة التى يتم إعادة بنائها بتضحيات جسيمة ودماء من الشهداء وإرادة فولاذية استعدادا ليوم العبور ومحو الهزيمة واسترداد الأرض.

قناة السويس طولها ١٦٠ كيلو متر وبعرض ٢٠٠ متر وعلى مسافات متباعدة أقامت إسرائيل سلسلة من التحصينات القوية على الضفة الشرقية لقناة السويس، وإذا كانت حرب الاستنزاف المصرية قد دمرت «خط بارليف» هذا فى معظمه، إلا أن إسرائيل سرعان ما أعادت بناءه.

لكن فيما بين تلك النقاط الحصينة أقامت إسرائيل شيئا أخر، فعلى حافة القناة مباشرة أقامت حائطا مرتفعا من الرمال بارتفاع عشرين مترا كوقاية إضافية، وقاية ضد القناصين المصريين على الضفة الغربية. والأهم من ذلك وقاية ضد أى محاولة مصرية للعبور إلى الشرق بمدرعات ودبابات.. الأفراد يمكن التعامل معهم لكن العبور بمدرعات ودبابات.. بدا وكأنه مستحيل.

لكن «رجال اليوم السابع» كانوا قد شطبوا من قاموسهم مبكرا كلمة مستحيل، ومع أن حرب الاستنزاف كانت لها جبهة قتال محددة هى خط قناة السويس إلا أن المواجهة سرعان ما أصبح لها بمرور الوقت جبهات شتى. هناك مثلا غارات إسرائيلية فى العمق المصرى بهدف ترويع المدنيين فى قراهم ومدنهم، هناك أيضا توحش يومى ضد كل محاولة تتقدم بها مصر لإعادة بناء جيشها.

لكن قناة السويس ذاتها أصبحت عقبة كبرى، فى نهاية المطاف هدف مصر من كل ما تفعله هو إعداد قواتها المسلحة للحظة عبور القناة إلى الشرق بدءا من تحرير الأرض..

فى تلك اللحظة ليس المطلوب عبور أفراد أو مقاتلين فقط ولكن أيضا عبور مدرعات ومدفعية ثقيلة ودبابات.. إذن المطلوب إقامة كبارٍ- جسور مائية فيما بين ضفتى قناة السويس- ثقيلة تتحمل عبور مركبات ثقيلة. وطوال عام ١٩٦٩ بدأت مصر سرا فى إجراء تجارب لإقامة هذا النوع من الكبارى، وحتى تكون التجارب أقرب إلى الطبيعة فقد اختيرت مناطق محددة على نهر النيل لإجراء التجارب فيها للوصول إلى الإجابات المطلوبة: أى نوع من الكبارى نحتاج إليه؟ كم من الوقت يستغرق تركيبه؟ كم معدل الحمولات التى يمكن أن ينقلها خلال الساعة؟.. الخ.

لكن هذا ليس كل شىء.. فبافتراض أن الكوبرى أقيم والدبابات عبرت فوقه فإنها سوف تجد على الجانب الأخر حائطا سميكا أصم مرتفعا من الرمال تغوص فيه وتدفن داخله إن لم يكن بفعل القذائف الإسرائيلية فهو بفعل الرمال ذاتها، وهذا هو الهدف الأصلى من إقامة هذا الحائط الرملى السميك الكبير المرتفع بامتداد قناة السويس.. كيف يمكن إذن فتح ثغرة فى هذا الحائط الرملى بعرض يكفى لعبور الدبابات والمدافع الثقيلة؟

أصبح هذا السؤال شديد الإلحاح والسرية معا، الذى يواجه «رجال اليوم السابع» لقد جربوا الديناميت والمواد الأخرى شديدة الانفجار والتجريف اليدوى والقذف المدفعى لكن بلا حل يناسب قصر الوقت المتاح لحظة العبور المستمر لقذائف العدو.

فى النهاية خرجت فكرة: لماذا لا نجرب القذف بالمياه؟

هى فكرة استثنائية بقدر بساطتها. لكن الفكرة نشأت من مشروع أخر بدا للعالم فى أوله مشروعا استثنائيا قبل أن يحوله المصريون إلى حقيقة.. وخلال شهر يوليو ١٩٦٩ تلقى المهندس صدقى سليمان، رجل السد العالى الشهير.. تعليمات من جمال عبد الناصر بأن ينسق فورا مع محمد فوزى وزير الحربية لعمل تجارب فعلية اختبارا للفكرة فى أرض الواقع، واختير موقع محدد فى منطقة اسمها «الخطاطبة» لكى يقيم فيه سلاح المهندسين بالقوات المسلحة ما يشبه خط بارليف والساتر الرملى فى سيناء، وجئ بالمعدات المطلوبة من أسوان على وجه السرعة وجلس مندوبوا سلاح المهندسين ووزارتى الرى والسد العالى يتابعون التجربة الأولى.

نعم الفكرة مدهشة وتنفيذها استغرق ساعة وربما من أجل عمل فتحة كافية تسمح بمرور دبابة، ولكن التعليمات جاءت سريعة: كرروا التجربة باستخدام كبارٍ حقيقية على نهر النيل ومدرعات ودبابات حقيقية.

هكـذا تكـررت التجربة وكان النجاح أكـبر، والوقت جرى اختصـاره إلى ٥٥ دقيقة، لكن يجب اسـتبدال الموتـورات الضخمة ومولداتها الكهربائية بنـوع خاص من الطلمبات الكهربائية يكون أخف وزنا وأسـهل نقلا عبر قناة السـويس، بعد بحث ودراسة فى نفس الموقع ومن خلال خبرات مهندسـى الرى والسـد العالى تبين أن تلك الطلمبات توجد فى أحد مصدرين: ألمانيا (الغربية) أو بريطانيا وبشرط عدم الإيحاء مطلقا بالمهمة الحقيقية لتلك الطلمبات. والآن يريد «رجال اليوم السـابع» اسـتخدامها فى هدف أخر يحولها إلى مدافع مائية، أو قذائف مائية تسـحب المياه من قناة السـويس ذاتها لكى تسـلطها على الحائط الرملى المرتفع فى الضفة الشـرقية لقناة السويس فتذوب الرمال أمام قوة الدفع وتتساقط إلى قناة السويس.

مـن يومهـا أصبحت فكرة مدافـع المياه هذه واحدة من أسـرار الدولـة العليا المحظور تناولها أو الحديث عنها إلا فى الدائرة الضيقة تماما بين رئيس الجمهورية ومدير سـلاح المهندسـين، إن تجارب إقامة كبارى العبور على نهر النيل اسـتمرت، لكن فكرة «مدافع المياه» اسكت هس، الحرب أسرار وأرواح المقاتلين أمانة.

□□□